السياحة في مصر في عصر المماليك (٦٤٨-٩٢٣ هـ / ١٢٥٠- ١٥١٧ م)

Tourism in Egypt during the Mamluk Era (648-923 AH / 1250-1517 AD)

ا. م. د. احمد خلف فندي السبعاوي

Prof. Dr. Ahmed Khalaf Fandi Al-Sabawi

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة نينوى – كلية القانون

Ministry of Higher Education and Scientific Research, University of Nineveh - College of Law

الكلمات المفتاحية: السياحة، عصر المماليك، تاريخ مصر المملوكي

Keywords: Tourism, Mamluk era, History of Mamluk Egypt

الملخص

يمكن القول : أن (السياحة) لم تكن مفهومًا سائداً في مصر إبّان العصر المملوكي: (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) وبالمعنى الحديث السائد لهذا المفهوم الترفيهي ، ومع ذلك شهدت هذه الفترة حركة مكثفة للمسافرين، والوافدين لأسباب متنوعة تتوزع ما بين السياحة والدبلوماسية والتجارة والرحلات وطلب العلم، ما استدعى ـ مع مرور الأيام ـ إلى استحداث بنية تحتية وإدارة فاهمة لدعمها وتنظيمها، ويمكن عد هذه الحركة مع البدايات التنظيمية الأولية بمثابة بداية للسياحة، إذ جذبت مصر في العصر المملوكي الزوار على اختلاف اعمالهم واهتماماتهم وصارت محطة حضارية فاعلة في هذا المجال .

كان الحج إلى مكة والمدينة دافعًا رئيسيًا أيام كانت القاهرة نقطة تجمع والتقاء وفي الوقت نفسه منطلقا لقوافل الحجيج باتجاه الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية، وهناك نصوصاً تاريخية مؤكدة تلمح إلى توافد طلاب العلم إلى القاهرة لغرض الاستفادة من المؤسسات التعليمية المرموقة كالأزهر الشريف.

أما التجار فقد جذبتهم مصر بوصفها محوراً تجارياً عالمياً يربط الشرق بالغرب في ذلك الزمن وشملت الزيارات أيضًا الدبلوماسيين والرحّالة الذين سعوا للاستكشاف وتوثيق مشاهداتهم للطبائع السكانية في مصر وكذلك رصد الحياة الاجتماعية فيها، فضلاً عن الفضول العلمي الذي قاد الكثيرين للاطلاع على عظمة البناء الفرعوني وكيفية بناء الأهرام والتعرف على التطور الطبي حينذاك.

وكلما ازداد عديد الوافدين الرسميين وغير الرسميين إلى مصر من العالم كانت بالمقابل تتطور البنية التحتية وأشكال الخدمة التي تقدم لهؤلاء المسافرين، كانت الطرق البرية وفي نهر النيل هي الشرايين الرئيسية المعروفة آنذاك للتنقل، وعلى الرغم من أن الطرق البرية التي يسلكها الزوار لم تكن ممتازة بالكامل، إلا أن الدولة اهتمت بتأمينها من قطاع الطرق والمعتدين.

ويمكن الإشارة إلى أن الخانات والوكالات وهي مراكز اقامة ومخازن كانت بمثابة مراكز إقامة رئيسية تعمل على توفير المبيت والإقامة للمسافرين، فضلاً عن وجود مخازن لتخزين البضائع، كما وفرت الربط وهي : مناطق للمراقبة وتطورت لتضم مكتبات علمية ومن ثم اصبحت أماكن للتعبد، وكذلك : الخانقاوات وهي عبارة عن أماكن مأوى إلى حد كبير تشبه دار المسنين وللعبادة أيضاً، كِلا الخانقاوات ؛ والرُبط اهتمتا بتوفير المأوى والطعام لطلاب العلم والفقراء.

وتجدر الإشارة إلى أن الحمّامات العامة كانت جزءًا لا يتجزأ من الخدمات الصحيّة المتاحة للوافدين، فيما كانت الأسواق تعد القلب النابض ومن المراكز الحيوية لتلبية احتياجات الزوار من طعام وسلع، وقامت الدولة بدور حيوي وإن كان غير مباشر في "إدارة السياحة" إذ كانت تضطلع بمهمة

تأمين الطرق التي يسلكها التجار والزوار الوافدين بواسطة الخفارات الأمنية التي كانت تناوب في حراسة القوافل بوجه السرّاق من البدو وبخاصة منها قوافل الحجيج، وتعدها أولوية قصوى كما شجعت الدولة من خلال الأوقاف السلطانية والأميرية، على بناء وصيانة المؤسسات التي تخدم المسافرين كالمساجد والمدارس والخانات، وكان تنظيم الجباية يتم بواسطة ما يسمى : الرسوم الجمركية على البضائع العابرة كجزء من هذه الإدارة، وبشكل عام ساهمت قوة الدولة المملوكية في حفظ الأمن والنظام داخل المدن، ما ساهم في توفير بيئة مستقرة وآمنة للمسافرين على مختلف صفاتهم.

وقد تركت الزيارة المتنوعة لمصر من الوافدين الزائرين انطباعات إيجابية في الغالب لديهم ، إذ أشاد الزوار من خلال بعض كتاباتهم إلى ضخامة القاهرة وجَمال عمرانها الفخم، ووفرة مساجدها ومدارسها. كما لفتَ انتباههم ثراء الأسواق وتنوع البضائع، وخصوبة الأرض ووفرة الخيرات. ولاحظ العلماء وطلاب العلم مكانة مصر كمركز علمي بارز. وعلى الرغم من وجود تحديات مثل المخاطر في بعض الطرق، إلا أن الكرم والضيافة وحفاوة اللقاء كانت من أبرز السمات التي ذكرها الرحّالة والزوار في انطباعاتهم عن أهالي مصر حينذاك .

تسهم هذه الدراسة البحثية المتعمقة في الكشف عن : أن "السياحة" في العصر المملوكي كانت ظاهرة معقدة ومتعددة الأوجه، وليست مجرد نشاط ترفيهي ربحي تعود بالريع المادي، بل كانت جزءاً لا يتجزأ من الاهتمامات الاقتصادية، والاجتماعية والدينية والعلمية للدولة، بمعنى : أن الدور الذي قامت به الدولة المملوكية، وإن كان غير مباشر في توفير البنية التحتية وتطويرها، وضمان الأمن ورعاية المؤسسات، كان حاسمًا في جعل مصر وجهة حيوية ومزدهرة جاذبة للزوار من كل حدب وصوب، وقد خلّف الوافدون وراءهم سجلات ثمينة تروي تفاصيل تجاربهم الفريدة في مخالطة أهالي مصر.

Abstract:

While "tourism" as a modern concept didn't exist in Mamluk Egypt (1250-1517 AD), this period saw intensive traveler movement for various reasons, necessitating infrastructure and administration to support it. This movement can be considered a nascent form of tourism. Mamluk Egypt attracted visitors from diverse backgrounds. Pilgrimage to Mecca and Medina was a primary motivator, with Cairo serving as a key gathering point and departure for caravans. Students of knowledge flocked to Cairo to benefit from prestigious educational institutions like Al-Azhar. As for merchants, Egypt's role as a global trade hub connecting East and West drew them in. Visits also included diplomats and explorers who sought to document geography, cultures, and wonders.

An infrastructure evolved to serve these travelers. Land and Nile river routes were the main arteries for movement, and despite not being fully

paved, the state focused on securing them. Khans and Wikalas served as primary accommodation centers, providing lodging for travelers and space for storing goods. Ribats and Khanqahs also offered shelter and food to students of knowledge and the poor. Public baths were an integral part of available services, and markets were vital centers for meeting visitors' needs for food and goods. The state played a crucial, albeit indirect, role in "tourism management." Securing roads through outposts and providing escorts for caravans, especially pilgrimage convoys, was a top priority. The state also encouraged, through Sultanic and princely endowments (awqaf), the construction and maintenance of institutions serving travelers, such as mosques, schools, and khans. Revenue collection through customs duties on transit goods was part of this administration. Overall, the strength of the Mamluk state contributed to maintaining security and order within cities, providing a stable environment for travelers.

Visitors' experiences in Egypt were mostly positive. Visitors lauded Cairo's grandeur and opulent architecture, along with its abundance of mosques and schools. They also noted the richness of the markets and diversity of goods, as well as the fertility of the land and abundance of provisions. Scholars and students of knowledge recognized Egypt's status as a prominent center of learning. Despite challenges like road hazards, generosity and hospitality were among the most prominent characteristics mentioned by travelers.

In-depth study reveals that "tourism" in the Mamluk era was a complex and multifaceted phenomenon, not merely leisure, but an integral part of the state's economic, social, religious, and scientific fabric. The indirect role played by the Mamluk state in providing infrastructure, ensuring security, and sponsoring institutions was crucial in making Egypt a vibrant and prosperous destination that attracted visitors from all corners of the world, leaving behind valuable records detailing their unique experiences.

المقدمة:

في العصور الوسطى، وقبل أن يُعرف مصطلح "السياحة" بالمعنى السائد حالياً، كانت مصر في عصر المماليك (٦٤٨ ــ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) وجهة عالمية فريدة، لا تجتذب وتغري جحافل الجيوش أو قوافل التجار وحسب، بل استقطبت فئات متنوعة من المسافرين والزوار الذين شدوا إليها الرحال من كل صوب في عالم العصور الوسطى.

وكانت القاهرة، حاضرة الدنيا وبستان العالم كما وصفها ابن خلدون، تحسب على المراكز الحضارية والاقتصادية والدينية والعالمية، يأتيه الناس لأغراض شتى: من طلب العلم في أروقة الأزهر، والتعلم في المدارس الفخمة، وكذلك : أداء فريضة الحج في رحلة تمر عبر الأراضي المصرية، مرورًا

بالتجارة في أسواقها العامرة، وصولًا إلى الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة، أو ببساطة لاستكشاف عجائب هذه الأرض وتاريخها العريق.

ويمكن القول : أن هذا النشاط وان تلك الحركة لم تكن وليدة الصدفة، بل قامت بناءً على توافر بنية تحتية متكاملة، ومجتمع حيوي نابض بالحياة، ودولة أدركت وإن بشكل غير مباشر، أهمية هؤلاء الزوار لانعاش اقتصادها وتعزير مكانتها، ولقد ترك لنا هؤلاء الرحالة، امثال: ابن بطوطة وابن جبير بترحالهم، شهادات مثبتة ترسم صورة دقيقة ومفعمة بالتفاصيل عن تجربة السفر والزيارة في مصر المملوكية.

إن هذا البحث : يسعى إلى استجلاء ملامح "السياحة" في تلك الفترة، متتبعًا خطى الزوار، ومستكشفًا دوافعهم، ومحللًا البنية التي قامت عليها هذه الظاهرة، من طرق ومرافئ وخانات، إلى سياسات الدولة التي نظمتها وأثرت فيها.

تتجاوز هذه الدراسة المفهوم الحديث للسياحة بوصفها نشاطاً ترفيهياً، بل تتعدى هذا المفهوم لتقدم تحليلًا لأشكال السفر والزيارة في سياقها التاريخي. فالمسافر إلى مصر المملوكية سواء كان حاجًا، أو تاجرًا، أو طالب علم، أو دبلوماسيًا، أو رحّالة مستكشفًا، كل فئة من هؤلاء كان لها دوافعها، ومساراتها وتجربتها الخاصة التي أسهمت في تشكيل نسيج الحياة اليومية في مدن مصر الكبرى.

إشكالية البحث: تتمحور إشكالية البحث حول السؤال الرئيسي التالي: كيف تشكلت ملامح "السياحة" في مصر المملوكية، وما هي البنى التحتية والمؤسسية التي قامت عليها، وما هو تأثيرها الاقتصادي والاجتماعي على الدولة والمجتمع؟؟؟؟

منهجية البحث: يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال الاعتماد على :

استقراء المصادر الأولية: في تحليل كتابات الرحالة المسلمين (ابن جبير، ابن بطوطة) والأوروبيين (فريسكو بالدي، سيغولي، أدورنو)، ؛ والمؤرخَين (المقريزي، والقلقشندي) لفهم تجربة الزائر وتفاصيل الحياة اليومية.

مراجعة الأدبيات الأكاديمية الحديثة :وذلك من خلال الاستناد إلى الدراسات المعاصرة في تاريخ المماليك، والاقتصاد الإسلامي، والتاريخ الحضري لتحليل البيانات ووضعها في سياقها.

مفهوم السياحة

لم يكن هناك تعريفاً عاماً وموحداً لمفهوم السياحة حتى عام ١٩٩٣م، حين قدمت منظمة السياحة العالميةUNWTO ذلك التعريف استخدمت الكثير من التعاريف لوصف السياحة والتي كانت جميعها تشير إلى صفات جوهرية متماثلة على الرغم من اختلاف إطارها المفاهيمي، كان هناك اختلاف كبير حول إمكانية وجود تعريف موحد ينطبق على مصطلح "السياحة" و"السائح" وفى هذا الصدد يشير ثيوبالد Theobald ١٩٩٤ إلى أنه : من الصعب جداً تعريف السياحة بدقة، لاختلاف

معناها لدى مختلف الأشخاص، هذا ويدعى ريسنجر بأنه" : من الصعب للغاية تعيين تعريف دقيق يعطى تفسيراً وافياً وذا معنى للسياحة، وذلك لأن هذا المفهوم متشعب ومتسع ومتعدد الإتجاهات" (Reisinger and Mavondo, 2001, 10-13)

وتعرف السياحة بأنها " تتضمن نشاطات الأفراد الذين يسافرون ويقيمون خارج مكان إقامتهم المعتادة ،بحيث تكون إقامتهم لمدة زمنية لا تزيد عن سنة واحدة متصلة وذلك إما لأجل الاستجمام أو العمل أو لأغراض أخرى".

كما تعرف السياحة بأنها " نشاط إنسانى يتضمن سلوكاً إنسانياً من استخدام للموارد و التفاعل مع أشخاص واقتصاديات وبيئات مختلفة، كما أنه يتضمن الحركة المادية للسائحين إلى أماكن أخرى غير مكان إقامتهم الاعتيادية".(شريقى, ٢٠٢٠, ١٠)

يمكن تعريف السياحة على أنها "مجموع العلاقات والظواهر الناتجة عن سفر وإقامة غير المقيمين، طالما أنها لا تؤدي إلى إقامة دائمة ولا ترتبط بأي نشاط لكسب العيش"، ويركز هذا التعريف على البعدين الأساسيين للسياحة:

- العنصر الديناميكي (الحركي): ويتمثل في عملية السفر والانتقال من مكان الإقامة المعتاد إلى المقصد السياحي والوجهة المكانية السياحية.
- العنصر الساكن (الإقامة): ويتمثل في المكوث المؤقت في المقصد السياحي وما يصاحبه من أنشطة واستهلاك للخدمات.(Krapf & Hunziker, 1942, 56)

وتعرف السياحة من وجهة نظر أخرى : بأنها ظاهرة من الظواهر العصر تنبثق من الحاجة المتزايدة للحصول على الراحة والاستجمام وتغيير الجو والإحساس بجمال الطبيعة والشعور بالبهجة والمتعة من الإقامة في مناطق ذات طبيعة خاصة.(إبراهيم, ٢٠٠٦, ٧١-٧١)

وتشترط غالبية التعريفات الأكاديمية للسياحة توفر ثلاثة عناصر أساسية في الرحلة لاعتبارها سياحية:

- الانتقال المؤقت: يجب أن تكون الإقامة في الوجهة السياحية مؤقتة ومحددة بفترة زمنية.
- عدم الارتباط بعمل مدفوع الأجر: لا ينبغي أن يكون الهدف الأساسي من السفر هو الحصول على عمل أو وظيفة في الوجهة المقصودة.
- حرية الاختيار: أن يكون السفر نابعاً من إرادة حرة بهدف تحقيق رغبات معينة كالترفيه أو العلاج أو الدراسة أو التعرف على طبائع البشر هنا وهناك.

أهمية السياحة:

تكمن أهمية السياحة في مجالات عديدة نذكر منها: (حجاب, ٢٠٠٢, ٢٤)

١) الأهمية الاقتصادية: في الوقت الحالي تعد السياحة محركاً مهما في التنمية الاقتصادية إذ تمثل مصدراً لإدخال العملة الحرة مما ينعكس إيجابيا على ميزان المدفوعات، وتؤثر على حجم العمالة وإعادة توزيع الدخل القومي داخل الدولة، فضلاً عن توظيف العمالة، وتوفر السياحة أيضاً عائدات تنعكس بالفائدة على السكان من خلال زيادة النشاط الاقتصادي، وتساعد الضرائب التي يدفعها السياح للحكومات المحلية على تمويل التعليم والرعاية الصحية وغيرها من الخدمات.

٢) الأهمية الثقافية: تمثل السياحة وسيلة اجتماعية وثقافية لنقل وتبادل الثقافات والنشاطات الحضارية بين مختلف شعوب العالم، وبهذه الطريقة يتحقق مفهوم التبادل الثقافي بين الدول، إذ تعمل على تلاقح اللغات والمعتقدات الفكرية والآداب والفنون المختلفة، ومختلف ألوان الثقافة عن طريق الحركة السياحية الوافدة إليها، فتؤثر فيها ثقافيا وتتأثر هي أيضا بما في الدولة من ثقافة وحضارة وبذلك يتحقق التأثير الثقافي للسياحة الذى يمثل محوراً هاماً من محاور التنمية في المجتمع.

٣) الأهمية السياسية: تتضح الأهمية السياسية كرد فعل مباشر من تعامل الدول مع بعضها البعض والزيارات السياحية المتبادلة بينهم، وقامت الحركة السياحية بدور فاعل في العلاقات الدولية بحيث أصبحت تمثل أحد الاتجاهات الحديثة لتقليل حدة الصراعات والخلافات الدولية التي تنشأ بين الدول المتنازعة أو المتحاربة، لذلك فإن السياحة أصبحت رمزاً من رموز السلام و التآخي بين الدول.

مقومات السياحة:

ترتكز السياحة على مجموعة من المقومات نذكر منها: (لخضر و بورحلي, ٢٠١٦, ٦٨)

١. المقومات الطبيعية: وتمثل كل الظروف المناخية وتمايز الفصول، مناطق دافئة، حمامات معدنية، أي كل مظاهر جذب السياح.
٢. المقومات البشرية: وتتمثل في الجوانب التاريخية كالآثار، المعالم، الشواهد، الاطلال، الفنون الشعبية المختلفة الثقافات والعادات لدى السكان ... إلخ.
٣. المقومات المالية والخدمية: وتتمثل في مدى توافر البنية التحتية، كالنقل ومدى تطور مختلف القطاعات الصناعية، والتجارية، والعمرانية، ومراكز الترفيه ... إلخ.

٤. كما تعتمد السياحة على قدرات الدول المختلفة على تشجيع السياحة بما تقدمه من تسهيلات ومستوى للأسعار ومواصلات أمنه واستقرار ورعاية صحية كاملة وحسن المعاملة وقدرة على إبراز جميع الجوانب والخصوصيات التي تهم السائحين بمختلف فئاتهم ورغباتهم.

دولة المماليك في مصر:

كانت مصر للفترة الزمنية من عام ٦٤٨ ـ إلى ٩٢٣هـ /١٢٥٠ إلى عام ١٥١٧ م تحت حكم المماليك، ويمكن تقسيم هذه الفترة الزمنية الممتدة على مدى ٢٠٠ عام تقريبا إلى فترتين شهدت كل واحدة منها قيام دولة للمماليك. الفترة الأولى : والتي امتدت من عام (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م)، وشهدت قيام دولة المماليك الأولى أو دولة المماليك البحرية، ومؤسسها هو : عز الدين أيبك، أما الفترة الثانية والتي امتدت من عام (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ـ١٥١٧ م)، وشهدت قيام دولة المماليك الثانية أو ما تسمى بـ : دولة المماليك البرجية (أو الجركسية)، ومؤسسها هو الظاهر برقوق العثماني الجركسي والتي استمرت بحكم مصر حتى سقوطها ونهايتها وانتقال الخلافة منها إلى العثمانيين.

امتازت دولة المماليك بكثرة الولاة والسلاطين الذين حكموها، وبقصر فترة حكمهم، فعلى سبيل المثال حكم دولة المماليك الأولى (المماليك البحرية) التي استمرت ١٤٤ سنة ٢٩ سلطانا، وذلك يعني أن متوسط حكم السلطان لم يكن يزيد على خمس سنوات، وإذا كان بعضهم قد حكم فترات طويلة، فإن الكثير منهم قد حكم عامًا أو عامين فقط، كما تشتهر دولة المماليك بكثرة الانقلابات والاضطرابات العسكرية، فقد قتل من السلاطين التسعة والعشرون عشرة، وخُلع اثنا عشر! وهكذا كانت القوَّة والسلاح هي وسيلة التغيير الرئيسية للسلاطين. (حمزة, ٢٠١٢, ١٠)

خلال عصر الدولة المملوكية، الذي استمرت من عام (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠–١٥١٧م)، حكمها نحو ٥٥ سلطانًا انتهى حكم أكثر من ٣٥ منهم بمؤامرات، وانتهت حياة أكثر من ٢٠ منهم بين القتل اغتيالًا، أو إعدامًا أو بميتة شابها شبهة اغتيال، حكم المماليك مصر لمدة قرنين ونصف تقريباً محققين إنجازات عسكرية مهمة بمقابل الكثير من الإخفاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وخلفوا وراءهم الكثير من الشواهد اماطت اللثام عن تقدم فنون البناء والعمارة والزخرفة في عصرهم، وعلى كم البذخ المادي والفساد الذي أطاح بدولتهم في نهاية الأمر، تحسب لهم العديد من الإنجازات المشرقة في تاريخ أمة الإسلام منها: وقوفهم سدًا منيعًا لصد قوتين من قوى الشر التي حاولت هدم صرح الإسلام، وهما التتار والصليبيون، وكان للمماليك جهاد مستمر ضد هاتين القوتين، وعلى مراحل مختلفة، وظلت دولة المماليك تحمل راية الإسلام في الأرض قرابة ثلاثة قرون.(حسين, ٢٠٢٥, ١٥)

دولة المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ هـ):

يرجع تاريخ دولة المماليك البحرية إلى مؤسسها السلطان نجم الدين أيوب الذي أتى بالمماليك وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠هـ، وتنقسم دولة المماليك البحرية إلى أسرتين وهما : أسرة الظاهر بيبرس البندقداري الذي حكم مصر مدة ١٧عاما ويعد هو المؤسس الحقيقي لدولتهم، إذ قام بالعديد من التعديلات الإدارية ومنها : إعادة إحياء الخلافة العباسية، ونقل مقرها إلى القاهرة عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩هـ، وأسرة المنصور قلاوون حيث يعتبر حكم الناصر محمد بن قلاوون الذي قارب على نصف قرن من الحكم أزهى عصور المماليك البحرية وقد تعاقب على حكم مصر بعد الناصر محمد العديد من الحكام وكانوا غالبيتهم صغار السن فيتحكم بهم قادة الجيش (الأتابكة) وظل الحال كذلك إلى أن ظهر الأمير برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة (البرجية). (وزارة الاثار المصرية, ٢٠١٩,)

دولة المماليك البرجية (٧٨٤ ـ ٩٢٣هـ /١٣٨٢-١٥١٧ م):

تأسست دولة المماليك البرجية (أو الجركسية) على يد سيف الدين برقوق، وتعود جذورهم إلى عهد المنصور قلاوون، الذي استعان بهم كثيرا في جيشه، وكانت هذه الفرقة مواليه له عندما أصبح جنرال عسكري، أصبح أحد هؤلاء المماليك الشركسيين (وهو برقوق) أحد أهم وأقوى رجال الدولة، ويمثل وصوله إلى الحكم بداية السلالة المملوكية البرجية، شهدت مصر تقدماً معمارياً وفنياً خلال هذا العصر على الرغم من أنها كانت فترة غير مستقرة، حكمت دولة المماليك البرجية مصر لمدة ١٣٥ سنة تقريباً من خلال ٢٣ من السلاطين بالتناوب، وانتهت مملكتهم بهزيمة السلطان طومان باي.(وزارة الاثار المصرية, ٢٠٢٠)

السياحة في مصر خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م):

من بين العصور المملوكية يشكل العصر المملوكي فترة فريدة وحاسمة في تاريخ مصر، امتدت قرابة ثلاثة قرون، شهدت فيها البلاد تحولات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية عميقة، وعلى الرغم من أن الصورة الشائعة عن هذا العصر ترتبط بالصراعات العسكرية ضد الصليبيين والمغول، وبالاضطرابات الداخلية بين أمراء المماليك أنفسهم، إلا أن مصر في تلك الحقبة كانت مركزاً عالمياً للتجارة، ومنارة للعلم والفن، ومقصداً رئيسياً لأنماط متعددة من "السياحة" بمفهومها الواسع الذي يتجاوز مجرد الترفيه ليشمل السفر لأغراض دينية وعلمية وتجارية ودبلوماسية.

أولاً: دوافع السفر وأنواع "السياح" في مصر المملوكية:

لم تكن السياحة في العصر المملوكي نشاطاً ترفيهياً منظماً كما هو الحال اليوم، بل كانت حركة ترحال يحفزها مجموعة متنوعة من الأهداف التي يمكن تصنيفها على النحو التالي:

١) السياحة الدينية قلب العالم الإسلامي والمسيحي :

الحج الإسلامي : كانت مصر تعد البوابة الشمالية الإفريقية للحجاز، كان ركب الحج المصري الذي يُنظم تحت إشراف مباشر من السلطان، حدثًا سنويًا ضخمًا، كان "المحمل" الذي يحمل كسوة الكعبة المشرفة يطوف شوارع القاهرة في احتفال مهيب قبل الانطلاق، جاذبًا الجماهير ومضفيًا هالة من الأهمية الدينية على دور السلطنة، وفرت الدولة الحماية والأمان للقوافل عبر سيناء، مما جعل من مصر نقطة تجمع آمنة للحجاج القادمين من المغرب العربي والأندلس.

الحج المسيحي: كانت مصر ممرًا رئيسيًا للحجاج الأوروبيين في طريقهم إلى القدس ودير سانت كاترين في سيناء، تعاملت السلطنة المملوكية بذكاء مع هؤلاء الحجيج، إذ أصدرت مجموعة مراسيم لتنظيم زياراتهم، وتأمين سلامتهم مقابل ضرائب ورسوم محددة، مدركةً العائد الاقتصادي لهذه الزيارات، وتصف شهادات رحالة مثل فريسكو بالدي وليوناردو سيغولي كيفية حصولهم على تصاريح المرور والتسهيلات التي قدمها لهم المسؤولون المماليك.

طلب العلم والزيارات الصوفية: كانت القاهرة، بمدارسها العريقة مثل الظاهرية والناصرية والمنصورية وجامع الأزهر، منارة للعلم جذبت الطلاب والعلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وصف ابن بطوطة حلقات العلم العامرة وزوايا الصوفية التي كانت تستقبل الزوار وتقدم لهم المأوى والطعام، مما خلق حركة علمية وروحانية مستمرة. (ابن بطوطة, د.ت, ٦٣)

٢) السياحة التجارية: شريان الاقتصاد العالمي:

كانت مصر مركزًا للتجارة العالمية، وملتقى طرق القوافل البرية والسفن القادمة من الشرق والغرب.

تجار الترانزيت: شكلت الإسكندرية وقوص على النيل موانئ حيوية لاستقبال البضائع الثمينة كالتوابل والأقمشة من الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر، ليتم نقلها برًا إلى الإسكندرية ومنها إلى أوروبا عبر التجار البنادقة والجنويين. كانت هذه التجارة تدر على خزينة الدولة أموالًا طائلة من خلال الضرائب والرسوم الجمركية.

الأسواق والخانات: كانت القاهرة نفسها سوقًا تجاريا ضخمًا، وقد أسس الأمير جهاركس الخليلي "خان الخليلي" عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م ليكون مركزًا للتجار، حيث لم يكن مجرد سوق، بل مجمع متكامل يضم أماكن للتخزين ومساكن للتجار. كانت الخانات والوكالات المنتشرة في المدن الكبرى فنادق تجارية توفر الأمان والخدمات للتجار وبضائعهم.(حسين, ٢٠١٨, ٢٩)

ويمثل وصف الأسواق وبيان تنظيمها وتوزيعها الجغرافي في المدن والأقاليم المملوكية جزءاً أساساً من الحركة التجارية ففي تعدد هذه الأسواق واتساعها وتنوع بضائعها دلاله على حجم الفعاليات فيها كما توزعت الأسواق الرئيسية و الإقليمية والمراكز التجارية بين النيابات المملوكية ، وتأثرت تجارة الأسواق بمختلف الظروف والتطورات التي عاشتها المدن المملوكية فكان ازدهارها أو تراجع دورها رهناً لهذه الظروف فأقيمت أسواق جديدة واستمرت بعض الاسواق القديمة في نشاطها.(

المقريزى, ١٩٩٧, ١٠٣) وخربت أجزاء من أسواق أخرى بينما اندثرت اسواق بالكامل وأقيمت الوكالات والخانات والفنادق التجارية المتخصصة في معظم المدن الرئيسية وعلى الطرق التجارية المؤدية إليها وشاركت هذه المؤسسات بصورة رئيسية في تجارة العبور فاستقبلت السلع التجارية التي ترد إليها من الدول الأخرى وأعادت تسويقها فكانت من خلال تجارها وسيطا تجارياً ومشاركاً في تجارة السلع الشرقية والاوروبية وكان لدولة المماليك البحرية سياستها الخاصة في تنظيم الأسواق وإدارتها فبرز المتجر السلطاني في العملية التجارية ومارس السلاطين من خلال احتكار سلع تجارية معينة كان لها مردود مالي وفير على الخزانة السلطانية. (المقريزى, ١٩٩٧, ١٠٣)

٣) السياحة الاستكشافية والدبلوماسية

الرحالة والمستكشفون: دفع الفضول وحب المعرفة وعشق التنقل رحالة مثل ابن بطوطة لاستكشاف أحوال البلاد وشعوبها، فقدموا أوصافًا دقيقة للمدن والعادات والتقاليد. كما زار بعض الأوروبيين مصر بدافع المغامرة والرغبة في رؤية عجائبها القديمة كالأهرامات، التي كانت تثير خيالهم (Sigoli &Gucci, 1948,).

لم تكن أرض المماليك مجرد دولة قوية عسكرياً، بل كانت تشكل مركزاً حضارياً تنصهر فيه الثقافات وكانت ملتقى للطرق التجارية ، ما جعلها مسرحاً حيوياً لحركة دائمة من الرحالة والمستكشفين الذين تنوعت دوافعهم وتعمقت رؤاهم. لم يقتصر الأمر على رحالة منفردين، بل شمل فئات متعددة تركت بصماتها في سجلات التاريخ، مقدمةً صورة متعددة الأبعاد عن هذا العصر الثري.

يظل ابن بطوطة (ت : ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) العلامة الأبرز، فرحلته لم تكن مجرد عبور، بل كانت استكشافاً منهجياً في مصر، لم يصف الآثار فحسب، بل حلل نظامها الإداري، وتحدث عن مدارسها ومارستاناتها (مستشفياتها)، وقوة اقتصادها القائم على الزراعة على ضفاف النيل، وصفه للطرق التي أمنتها الدولة المملوكية للحجاج والتجار يعكس رؤية رجل دولة لا مجرد سائح عابر، وعندما انطلق من أراضي المماليك نحو الشام ثم إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي، كان يحمل معه صورة دولة مركزية قوية ومستقرة، تمثل قلب العالم الإسلامي النابض.

إلى جانب هذه النظرة الإسلامية الداخلية، كانت هناك عيون أوروبية ترقب وتدون، فئة التجار الأوروبيين، خاصة من البندقية وجنوة، لم يكونوا مجرد وسطاء للبضائع الثمينة كالبهارات والحرير. كان تجار مثل الفينيسي إيمانويل بيلوتي (Emmanuel Piloti)، الذي عاش في مصر لعشرين عاماً في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر، يقدمون تقارير استخباراتية واقتصادية دقيقة لحكوماتهم، وصف بيلوتي في كتاباته النظام المالي والضريبي للمماليك، وقوتهم العسكرية،

ونقاط ضعفهم، مقدماً دليلاً عملياً لكيفية التعامل التجاري والعسكري مع السلطنة، لقد كانوا مستكشفين اقتصاديين بامتياز، ترسم تقاريرهم خريطة دقيقة لمصادر قوة الدولة المملوكية.

فئة أخرى هامة هي الحجاج المسيحيون الأوروبيون المتجهون إلى الأراضي المقدسة في فلسطين. كانت رحلتهم تمر حتماً عبر الأراضي المملوكية، خاصة ميناء الإسكندرية. ورغم أن دافعهم كان دينياً، إلا أن كتاباتهم حملت طابعاً استكشافياً عميقاً. الراهب الدومينيكاني فيليكس فابري (Felix Fabri) في القرن الخامس عشر، قدم في كتابه الضخم وصفاً تفصيلياً لرحلته، متحدثاً عن كل شيء من المعاملة التي يلقاها الحجاج، إلى وصف مدن مثل القاهرة والإسكندرية، وعادات المصريين، وحتى أنواع الحيوانات والنباتات التي شاهدها. وقد عُدّت تلك الكتابات المصدر الرئيسي لمعرفة الأوروبيين عن الشرق، وكانت تمزج بين المشاهدات الواقعية والانطباعات الشخصية وأحياناً الخرافات، لكنها تظل وثائق استكشافية لا غنى عنها.

كما لا يمكن إغفال العلماء وطلاب العلم الذين كانوا في حركة دائمة من وإلى القاهرة ودمشق، هؤلاء لم يكونوا مجرد ناقلين للمعرفة، بل كانوا مستكشفين في حقول الجغرافيا والتاريخ والطب. كانوا يرسمون الخرائط، ويحققون أسماء الأماكن، ويصفون الطرق، ويجمعون المخطوطات النادرة. رحلاتهم كانت جزءاً لا يتجزأ من الحراك العلمي العالمي، وقد ساهمت في الحفاظ على المعرفة وتطويرها في عصر ما قبل الطباعة.(عاشور, ١٩٧٢, ٢٩٠)

هؤلاء الرحالة والمستكشفون، سواء كانوا مسلمين مثل : ابن بطوطة أو تجاراً مثل : بيلوتي ؛ أو حجاجاً مثل: فابري أو علماء مجهولين، شكلوا معاً شبكة واسعة لجمع المعلومات ونقلها، كانت رحلاتهم استكشافاً حقيقياً يتجاوز حدود الجغرافيا ليصل إلى عمق المجتمعات، والاقتصاد والثقافة والسياسة، مقدمين لنا اليوم سجلاً حياً ونابضاً لدولة المماليك كقوة عالمية ونقطة التقاء للحضارات.

البعثات الدبلوماسية: كانت القاهرة مقرًا للسلطنة القوية، مما جعلها وجهة للسفراء والمبعوثين من الدول الأوروبية والآسيوية لتقديم الهدايا وعقد الاتفاقيات التجارية أو السياسية مما ساهم في تحقيق التوازن السياسي وتأمين المصالح المشتركة مع الدول المختلفة.

اولاً : الدبلوماسية المملوكية مع المغول:

كانت بين دول المغول والدولة المملوكية علاقات دبلوماسية شابها بعض التوتر حيث كانت نقطة الخلاف الدائم بين المماليك وبعض سلاطين هذه الدول هو التقارب السياسي والديني الذى كان يحصل أحياناً بين ملوك المغول وأمراء الحجاز في بعض الأحيان (الحصان, ٢٠١٤, ٢٧٢)، وقد خشى سلاطين المماليك من هذا التقارب لما عرفوا عن سلاطين المغول من محاولات جادة لبسط نفوذهم على بعض أمراء مكة لمنافسة السلطة المملوكية في الحجاز.(سحر, ٢٠١٣, ٢٧٠)

١) دبلوماسية المملوكية مع الإلخانيين:

أول محاولة كانت في هذا المجال بين الإلخانيين والمماليك عندما عرض الملك الإلخانى أبغا خان الصلح على السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٤م (المقريزى, ١٩٩٧, ٥٥٣)، وذلك بعد عام واحد من توليه العرش ثم ثنى بإرسال سفارة ثانية سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م، ثم ثالثة سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م .(البعلبكى, ٢٠٠٧, ٤٠٧) ولكن السلطان المملوكى رفض العرض لشعوره بمسؤولية هذا الملك ومن قبله على ما وقع للمسلمين من سفك لدمائهم.(عاشور, ١٩٧٦, ٤٤)

٢) الدبلوماسية المملوكية مع الجلائريين:

على سيرة سلفهم الإيلخانيين فقد كانت للجلائريين علاقات دبلوماسية قوية ومتينة بالمماليك بالقاهرة حيث استعانت بهم السلطة المملوكية مراراً في تعقب الخارجين عليها والهاربين الى مناطق سيطرة هذه الدولة ولهذا كان المماليك يقدرون الجلائريين هذا التعاون بل ويتغاضون عن بعض أعمالهم فى منطقة نفوذ المماليك. (طرطور, ١٩٨٧, ٥)

٣) الدبلوماسية المملوكية مع التيموريين:

اتسمت العلاقات بين الدولة التيمورية والدولة المملوكية بالتوتر والعداوة المتصاعدة منذ عهد الملك تيمورلنك الذى كان على طغيانه وجبروته ينكر على ملوك وسلاطين العالم الإسلام ومنهم المماليك تقاعسهم عن الجهاد وأخذهم الجباية من المسلمين وقد اتخذ من ذلك ذريعة لغزو الأراضي المملوكية واحتلال معظم مدن بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م لاسيما بعد أن سعى تيمورلنك إلى التطلع إلى الخلافة الاسلامية بعد اشتهاره في العالم الإسلامي كما أن قتل السلطان المملوكي برقوق في مخالة واضحة للقواعد الدبلوماسية لرسل السفارة التيمورية المرسلة الى القاهرة سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م لحث المماليك على عدم التعاون مع الجلائريين بعد احتلال التيمورينن لعاصمة الجلائريين بغداد سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م كان مما عجل وزاد من هذا العداء بين تيمورلنك والمماليك وقد كانت السفارات الدبلوماسية وتبادل الرسائل التفاضية مستمرة بين الجانب المملوكى والتيمورى بين سنوات ٧٩٦هـ-٧٩٩هـ / ١٣٩٤م- ١٣٩٧م ولكن لم تثمر نتائج إيجابية.(باعامر, ١٩٩٣, ٣٧١)

ثانياً : الدبلوماسية المملوكية مع دول المغرب الإسلامي:

لقد كانت علاقة المغرب الإسلامي وطيدة بالمشرق الاسلامي إذ اسهمت في ذلك جملة من العوامل التي عززت هذه العلاقة وقوت تلك الرابطة منها وحدة الدين واللغة والرحلة إلى الحج وطلب العلم هذا فضلاً عن العلاقات الدبلوماسية التي ربطت بين حكام المنطقتين و التي كانت في غالبها علاقات حسن الجوار وتعاون يشهد على ذلك العلاقات المرابطية في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ٥٣٧هـ/١١٤٣م مع العباسيين في عهد الخليفة المستظهر بالله ٥١٢هـ/١١١٨م

او تلك العلاقات الموحدية في عهد المنصور الموحدى٥٩٥هـ / ١١٩٨م ؛ والفاتح صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م .(مغوارى, ٢٠٠٠, ٢٠٢)

ثالثاً : الدبلوماسية المملوكية مع الدولة العثمانية:

وهى من أهم وأخطر أنواع العلاقات المملوكية الخارجية مع دول الجوار لأنها كانت في آخر المطاف سبب في انهيار الدولة المملوكية، وإنهاء تاريخها الطويل حين سقطت هذه الدولة على أيدى العثمانيين نهائياً سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ولكن سيق ذلك طريق طويل من العلاقات الدبلوماسية التي تأرجحت بين المودة و التقدير وبين القلق ثم الصدام العسكري.(فريد بك, ١٩٨١, ٩٦)

ثانياً : البنية التحتية للسياحة في مصر في العصر المملوكي:

لم تكن الحركة النشطة للزوار ممكنة لولا وجود شبكة متطورة من المرافق والخدمات التي سهلت السفر والإقامة، والتي يمكن اعتبارها "البنية التحتية السياحية" لتلك الفترة.

١. الطرق ووسائل النقل

كانت الطرق هي الشريان الحيوي الذي يربط بين المدن والمناطق المختلفة، وقد أولى المماليك اهتمامًا كبيرًا بصيانتها وتأمينها. لم تكن هذه الطرق ممهدة بالمعنى الحديث، بل كانت في الغالب مسارات طبيعية يعتمد عليها المسافرون. ولضمان سلامة المسافرين، انتشرت الخفارات ونقاط المراقبة على طول هذه الطرق، خاصة تلك المؤدية إلى الأماكن المقدسة أو الحدودية.(السيوطى, د.ت, ٩٨)

وقد تنوعت وسائل النقل في العصر المملوكي لتناسب احتياجات المسافرين المختلفة. كانت الجمال والبغال هي الوسيلة الأساسية لنقل البضائع والأشخاص لمسافات طويلة، بينما استخدمت الخيول للتنقل السريع وحراسة القوافل، أما بالنسبة للنقل النهري، فقد كان لنهر النيل دورًا محوريًا في ربط مدن الوجهين البحري والقبلي، حيث استخدمت المراكب الشراعية لنقل الأفراد والبضائع، مما سهل حركة التجارة والسفر بين المدن النيلية. (القلقشندى, ١٩٦٣, ٥٤)

٢. أماكن الإقامة والخدمات

لغرض خدمة المسافرين، ظهرت وتطورت مجموعة من المنشآت التي وفرت لهم المأوى والراحة. كانت الخانات والوكالات هي أبرز هذه المنشآت، الخانات كانت بمثابة فنادق صغيرة أو بيوت ضيافة توفر غرفًا للمسافرين ومساحات لإيواء دوابهم. أما الوكالات، فكانت أكبر حجمًا وأكثر شمولاً، إذ كانت تجمع بين وظيفة الفندق والمستودع التجاري، وتوفر خدمات متكاملة للتجار والمسافرين، مثل غرف الإقامة، المخازن، المطابخ، وحتى المساجد الصغيرة.

إلى جانب الخانات والوكالات، قامت الربط والزوايا بدور مهم في استضافة المسافرين، خاصة الفقراء وطلاب العلم، كانت هذه المنشآت تابعة للمؤسسات الدينية أو الوقفية، وتوفر المأوى والطعام مجانًا، كما كان للحمامات العامة أهمية كبرى كجزء لا يتجزأ من البنية التحتية، حيث كانت توفر للمسافرين أماكن للاغتسال والاستراحة، وكانت بمثابة مراكز اجتماعية أيضًا.

٣. توفير الأمن والسلامة

كان الأمن من أهم التحديات التي تواجه المسافرين في العصر المملوكي، ولذلك اتخذت الدولة المماليكية إجراءات صارمة لضمان سلامتهم، تم إنشاء الخفارات المنتشرة على الطرق الرئيسية لمراقبة الحركة وتأمين القوافل ضد قطاع الطرق، كما كانت الأبراج العسكرية والقلاع المنتشرة على طول الطرق وفي المدن بمثابة نقاط حماية ودفاع، فضلاً عن ذلك، كانت هناك قوانين صارمة ضد السارقين وقطاع الطرق، مما ساهم في ردع الجرائم وتوفير بيئة آمنة للمسافرين.

٤. المؤسسات الدينية والتعليمية

لم تكن المساجد والمدارس مجرد أماكن للعبادة والتعليم، بل كانت جزءًا لا يتجزأ من البنية التحتية التي تخدم المسافرين، كانت المساجد الكبرى توفر أماكن للمبيت المؤقت للمسافرين، وكانت تحتوي غالبًا على بئر ماء ومكان للوضوء. كما كانت المدارس والخانقاوات (أماكن إقامة الصوفية) تستضيف طلاب العلم والرحالة الذين كانوا يتنقلون لطلب المعرفة، وتقدم لهم المأوى والطعام.(ابراهيم, ١٩٩٣, ٨٦)

ثالثاً : تجربة الزائر في مصر المملوكية:

تُعد آراء الزوار في مصر المملوكية (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) بمثابة نافذة قيمة تطل منها على الحياة اليومية، والمشاهدات العمرانية، والتفاعلات الاجتماعية في تلك الحقبة التاريخية الثرية. لم تكن هذه الآراء مجرد انطباعات عابرة، بل غالبًا ما كانت تُسجل في مدونات مفصلة من قبل رحالة، وعلماء، وتجار، ودبلوماسيين، تركوا لنا سجلات حية تعكس نظرتهم إلى مصر كمركز حضاري واقتصادي وديني. يعتمد هذا البحث على استقراء هذه الشهادات المكتوبة لتقديم صورة شاملة لآراء الزوار، مع تحليل لموضوعية هذه الآراء وتأثير خلفيات الزوار عليها.

1. الانطباعات الأولى ومشهد القاهرة

تتفق معظم شهادات الرحالة، من ابن جبير إلى ليوناردو فريسكو بالدي، على الشعور بالدهشة والانبهار عند الوصول إلى مصر، وخاصة القاهرة. وصفوها بالمدينة التي لا مثيل لها في اتساعها وكثرة سكانها وعمائرها الشاهقة. يتحدث ابن بطوطة عن "قاهرة الأمم" ومآذنها التي تزين الأفق، وأسواقها التي لا تنقطع حركتها ليلًا ونهارًا. كما وصف الأوروبيون دهشتهم من ارتفاع مباني القاهرة

التي قد تصل إلى خمسة أو ستة طوابق، وهو ما لم يكن مألوفًا في مدنهم.(الششتاوى, ١٩٩٩, ٥٤)

.2المعالم والوجهات الرئيسية

(القاهرة): كانت المدينة نفسها هي أعظم معلم. كان الزوار يقصدون جامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص، ومجمع السلطان قلاوون بمدرسته ومارستانه (مستشفاه) الذي كان يقدم العلاج مجانًا للجميع، ومسجد السلطان حسن الفخم، وقلعة الجبل مقر الحكم. كانت أسواق القاهرة مثل خان الخليلي وجهة رئيسية للتسوق والفرجة. (الششتاوى, ١٩٩٩, ٥٤)

)الإسكندرية): وصفها ابن بطوطة بأنها "الثغر المحروس"، وأشاد بمنارتها (الفنار) التي كانت لا تزال قائمة وعمود السواري. كانت ميناءً عالميًا تعج بالتجار من كل الجنسيات.

)صعيد مصر): كانت الرحلة النيلية بحد ذاتها تجربة فريدة، يمر فيها الزائر بمدن مثل قوص وأسيوط التي وصفها ابن بطوطة بأنها "رفيعة وأسواقها بديعة". كانت الآثار المصرية القديمة تثير الفضول، وإن كان يُنظر إليها غالبًا على أنها من أعمال السحر أو العمالقة.

)الأماكن المقدسة): كان دير (سانت كاترين) في سيناء مقصدًا رئيسيًا للحجاج المسيحيين، بينما كان طريق الحج الإسلامي عبر سيناء يمر بمواقع ذات أهمية دينية.

.3التكاليف والمخاطر

تكاليف السفر: لم يكن السفر مجانيًا، بل كان يتوجب على المسافرين دفع رسوم للمرور، وضرائب على بضائعهم. تذكر المصادر الأوروبية ضرورة دفع مبالغ محددة للحصول على تصاريح لزيارة الأماكن المقدسة، أما الإقامة، فكانت تتراوح بين المجانية في الزوايا الصوفية للمسلمين، والمدفوعة في الخانات والفنادق للتجار والزوار الأجانب.

مخاطر الطريق: على الرغم من جهود الدولة لتأمين الطرق، لم تخلُ الرحلات من المخاطر، كان قطاع الطرق من البدو يشكلون تهديدًا دائمًا للقوافل في المناطق الصحراوية، مما استلزم مرافقة الحراس المسلحين، كما كانت العواصف في البحر تشكل خطرًا على المسافرين عبر المتوسط أو البحر الأحمر.

.4التفاعل الاجتماعي والضيافة

تصف المصادر الأوروبية، مثل رحلة : (أنسيلم أدورنو البلجيكي)، حفاوة الاستقبال وضيافة المماليك. وعلى الرغم من الاختلافات الدينية والثقافية، كان هناك قدر كبير من التفاعل بين الزوار والسكان المحليين، خاصة في المراكز التجارية مثل الخانات والأسواق. كان المترجمون، وغالبًا ما كانوا من اليهود أو المسيحيين المحليين، يقومون بدور فعال وعملي في تسهيل التواصل.(هولت, ٢٠٠٨, ٧٦)

رابعا : دور الدولة المملوكية في إدارة السياحة:

قامت الدولة المملوكية بدور المنظم والمستفيد الأول من حركة الزوار، من خلال سياسات وإجراءات إدارية واقتصادية محكمة وذلك من خلال:

١. التنظيم الإداري والأمني

إدارة شؤون الحج: كان منصب "أمير الحج" منصبًا رفيعًا يعينه السلطان مباشرة، وكان مسؤولًا عن تنظيم قافلة الحج المصرية وتأمينها وتزويدها بالمؤن والماء، ويعكس هذا الاهتمام الرسمي الأهمية السياسية والدينية التي أولتها الدولة لفريضة الحج.

تأمين الطرق: كانت حماية الطرق التجارية وطرق الحج من أولويات الدولة لضمان استمرار تدفق التجارة والزوار، تم إنشاء حاميات عسكرية على طول الطرق الرئيسية، وكانت الدولة تتعامل بحزم مع القبائل التي تهدد أمن القوافل.(Hanna, 1998)

تنظيم شؤون الأجانب: كان التجار والحجاج الأوروبيون يخضعون لنظام معين، كان القناصل الممثلون لدولهم (مثل البندقية وجنوة) يلعبون دور الوسيط بينهم وبين السلطات المملوكية. وكانت هناك ضرائب ورسوم محددة (تُعرف بالمكوس) تُفرض عليهم عند دخول الموانئ أو زيارة الأماكن المقدسة، وتوفر هذه الرسوم مصدر دخل مهم للدولة.(Chamberlain, 1994)

٢. العمارة المملوكية كعامل جذب

قام سلاطين وأمراء المماليك بدور مباشر في تعيئة معالم جاذبة للزوار من خلال شغفهم بالعمارة، لم تكن المجمعات المعمارية الضخمة التي شيدوها (مثل مجمع قلاوون ؛ ومسجد ومدرسة السلطان حسن ؛ ومجمع الغوري)، مجرد أماكن للعبادة، بل كانت رموزًا لقوة السلطان وتقواه، ومراكز للخدمات الاجتماعية والثقافية كانت هذه المباني، بقبابها الشاهقة ومآذنها المزخرفة وواجهاتها الفخمة، تبهر الزوار وتجسد عظمة القاهرة، وتعد اليوم من أهم كنوز التراث العالمي. وقد ساهم الوقف بسخاء في تمويل هذه المشاريع العملاقة.

اشتهر سلاطين وأمراء المماليك برعايتهم الحماسية للفن والعمارة وتشجيع الحرفيين والصناع المهرة من وادي النيل بأكمله. تضمنت المشاريع التي كانت تحت حكمهم ضريحاً واحداً أو مبنى خيرياً صغيراً (مثل نافورة مياه شرب عامة)، بينما شملت مجمعاتهم المعمارية الكبيرة عادةً العديد من الوظائف في مبنى واحد أو أكثر، يمكن أن تشمل هذه المباني أعمال خيرية وخدمات اجتماعية، مثل مسجد، خانقاه، مدرسة، بيمارستان (مستشفى)، كُتَّاب : (ما يُقابل المدرسة الابتدائية) ، سبيل : (لتوزيع المياه على السكان المحليين)، أو حوض (لشرب للحيوانات)، أو لأجل الوظائف التجارية، مثل وكالة/خان (نزل لإيواء التجار وبضائعهم)، أو ربع (مجمع سكني للمستأجرين القاهريين).) Abouseif, 2008)

كانت هذه المباني ومؤسساتها مصونة بموجب اتفاقيات الوقف والتي منحتها وضع الأوقاف أو الصناديق الخيرية التي لا يمكن التصرف فيها قانوناً بموجب الشريعة الإسلامية، سمح ذلك بتأكيد إرث السلطان من خلال مشاريعه المعمارية وكان قبره – وربما قبور عائلته – يوضع عادة في ضريح ملحق بمجمعه الديني، وبما أن الأعمال الخيرية هي إحدى الركائز الأساسية للإسلام، فقد أظهرت هذه المشاريع الخيرية علانية تقوى السلطان، في حين ربطت المدارس الدينية على وجه الخصوص أيضاً النخبة المماليك الحاكمة بالعلماء ورجال الدين الذين عملوا حتماً كوسطاء مع العامة. ساعدت مثل هذه المشاريع على إضفاء الشرعية على سلاطين المماليك (الحكام)، الذين عاشوا في معتزل عن العامة وكانوا من العجم، من الرقيق (كان المماليك قد أُشتروا وجُلبوا كرقيق صغار ثم تحرروا للخدمة في الجيش أو الحكومة). عززت بناياتهم الخيرية دورهم الرمزي كحماة أتقياء للإسلام السني المستقيم ورعاة للطرق الصوفية وأضرحة الأولياء المحلية. (Bloom, 2009, 152)

فضلاً عن ذلك : فإن أحكام الأوقاف الورعة قدمت أيضاً دوراً لضمان مستقبل مالي لأسرة السلطان بعد وفاته، حيث لم تكن السلطنة المملوكية بالوراثة ولم ينجح أبناء السلطان إلا نادراً في تولي الحكم بعد وفاته ونادراً لفترة طويلة. يمكن لعائلة السلطان وأحفاده الاستفادة من خلال الاحتفاظ بالسيطرة على مؤسسات الوقف المختلفة التي بناها والاحتفاظ قانوناً بجزء من عائدات تلك المؤسسات كدخل معفى من الضرائب والتي لا يمكن من الناحية النظرية، أن تلغيها الأنظمة من السلاطين اللاحقين، على هذا النحو، فإن حماسة البناء لدى حكام المماليك كانت مدفوعة أيضاً بفوائد نفعية حقيقية للغاية، كما أقرها بعض المراقبين المعاصرين أمثال ابن خلدون. (Raymond, 1993)

٣. الأثر الاقتصادي لحركة الزوار

شكلت "السياحة" رافدًا اقتصاديًا هاماً للدولة المملوكية.

الضرائب والرسوم: كانت الضرائب المفروضة على التجارة العابرة (الترانزيت)، والرسوم الجمركية على الواردات والصادرات، والضرائب التي يدفعها الحجاج والتجار الأجانب، تشكل مصدرًا مباشرًا ومهمًا لخزينة الدولة.

تنشيط الأسواق المحلية: أدت حركة الزوار إلى ازدهار الأسواق المحلية، وكان الحجاج والتجار ينفقون أموالهم على السلع والخدمات، من طعام وشراب وإقامة ونقل، وشراء الهدايا والمنتجات المحلية، مما ساعد في انعاش اقتصاد المدن التي يمرون بها أو يقيمون فيها.

ازدهار الحرف والصناعات: قاد توافد الزوار والتجار إلى ازدهار العديد من الحرف والصناعات مثل صناعة الأقمشة، والزجاج، والخزف، والمشغولات المعدنية، والتي كانت تباع في أسواق مثل خان الخليلي.(Bloom, 1995)

المصادر العربية

إبراهيم، أحمد زكي. (١٩٩٣) *تاريخ مصر في العصر المملوكي* , دار المعارف.

إبراهيم، وفاء زكي. (٢٠٠٦) *دور السياحة في التنمية السياحية*. المكتبة الجامعية الحديثة.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله. (د.ت) *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*.

باعامر، محمد سالم. (١٩٩٣) *صلة الدولة التيمورية بالعالم الإسلامي في عهد تيمورلنك* (رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

البعلبكي، قطب الدين موســـى بن محمد. (٢٠٠٧) *ذيل مرآة الزمان* ج٢، تحقيق حمزة عباس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

بك، محمد فريد. (١٩٨١) *تاريخ الدولة العلية العثمانية* تحقيق إحسان حقي، ط١، دار النفائس.

حجاب، محمد منير. (٢٠٠٢) *الإعلام السياحي* , دار الفجر للنشر والتوزيع.

حسين، سليمان محمد. (٢٠١٨). خان الخليلي في العصر العثماني: دراسة تاريخية وثائقية . *مجلة الشرق الأوسط*، (45)، 29.

حسين، عبدالجبار. (٢٠٢٥) *الدولة المملوكية* ج١، مركز الدراسات والبحوث العلمية الاستراتيجية الحضاري.

الحصان، محمد فهد. (٢٠١٤) *علاقات العراق السياسية والحضارية بالحجاز منذ سقوط بغداد حتى نهاية الحكم التيموري ٦٥٦هـ-٩٠٧هـ/١٢٥٨م-١٥٠١م*)رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة القصيم، كلية اللغة والدراسات الاجتماعية، قسم التاريخ.

حمزة، هاني. (٢٠١٢) *مصر المملوكية: قراءة جديدة* ط١، دار العين للنشر.

سالم، سحر عبد العزيز. (٢٠١٣) *صفحات تاريخية إسلامية*. مؤسسة شباب الجامعة.

الســيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. (د.ت) *حســن المحاضــرة في تاريخ مصــر والقاهرة*)ص ٩٨). دار إحياء الكتب العربية.

شــريقي، طرفة زكريا. (٢٠٢٠) *مدخل إلى الســياحة والاســتضــافة*. جامعة المنارة. متاح على https://manara.edu.sy

الششتاوي، محمد. (١٩٩٩) *ميادين القاهرة في العصر المملوكي* (ط١) دار الآفاق العربية.

طرطور، شعبان ربيع. (١٩٨٧) *الدولة الجلائرية* ط١، دار الهداية.

عاشور، سعيد عبد الفتاح. (١٩٧٢) *مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك* ,دار النهضة العربية.

عاشور، سعيد عبد الفتاح. (١٩٧٦) *العصر المملوكي في مصر والشام* , دار النهضة العربية.

القلقشندي، أحمد بن علي. (١٩٦٣) *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مغواري، رابح. (٢٠٠٠) *منهج ابن الخطيب في التأريخ للمشرق* , ج١، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (١٩٩٧) *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)*, ج٢،. مكتبة مدبولي.

مولاي لخضـــر، عبد الرزاق، &بورحلي، خالد. (٢٠١٦). متطلبات تنمية القطاع الســـياحي الاقتصادي الجزائري .*المجلة الجزائرية للتنمية الاقتصادية*، (4)، 68.

وزارة الآثـار المصـــرية. (٢٠١٩). دولـة المـمـاليـك البـحريـة. مســـترجع من https://web.archive.org/web/20201020081025/https://egymonuments.gov.eg

وزارة الآثـار المصـــرية. (٢٠٢٠). دولـة المماليك الجراكســـة (البرجية). مســـترجع من https://web.archive.org/web/20201001020601/https://egymonuments.gov.eg

Holt, P. M. (2008). *تاريخ المماليك* (ترجمة محمد مصـــطفى زيادة، ص ٧٦). مكتبة الأسرة.

المقريزي، تقي الدين. (١٩٩٧) *السلوك لمعرفة دول الملوك* ج١. دار الكتب العلمية.

المصادر العربية المترجمة

Ibrahim, Ahmed Zaki. (1993) *History of Egypt in the Mamluk Era*, Dar al-Maaref.

Ibrahim, Wafaa Zaki. (2006) *The Role of Tourism in Tourism Development*, Modern University Library.

Ibn Battuta, Muhammad ibn Abdullah. (n.d.) *A Gift to Those Who Contemplate the Wonders of Cities and the Marvels of Travel*.

Baamer, Muhammad Salem. (1993) *The Timurid State's Connection with the Islamic World during the Reign of Timur* (Unpublished Doctoral Dissertation), Umm al-Qura University, Faculty of Sharia and Islamic Studies.

Baalbaki, Qutb al-Din Musa ibn Muhammad. (2007) *Supplement to *Mir'at al-Zaman*, Vol. 2, edited by Hamza Abbas, Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage.

Bak, Muhammad Farid. (1981) *History of the Sublime Ottoman State*, edited by Ihsan Haqqi, 1st ed., Dar al-Nafais.

Hijab, Muhammad Munir. (2002) *Tourism Media*, Dar al-Fajr for Publishing and Distribution.

Hussein, Suleiman Muhammad. (2018). Khan al-Khalili in the Ottoman Era: A Historical and Documentary Study. Al-Sharq Al-Awsat Journal, (45), 29.

Hussein, Abdul-Jabbar. (2025) The Mamluk State, Vol. 1. Center for Strategic Civilizational Studies and Research.

Al-Hassan, Muhammad Fahd. (2014) Iraq's Political and Cultural Relations with the Hijaz from the Fall of Baghdad until the End of Timurid Rule 656 AH–907 AH/1258 CE–1501 CE (Unpublished Doctoral Dissertation). Qassim University, College of Language and Social Studies, Department of History.

Hamza, Hani. (2012) Mamluk Egypt: A New Reading, 1st ed., Dar Al-Ain Publishing.

Salem, Sahar Abdul-Aziz. (2013) Islamic Historical Pages. University Youth Foundation.

Al-Suyuti, Jalal al-Din Abdul-Rahman. (n.d.) The Excellent Lecture on the History of Egypt and Cairo (p. 98). Dar Ihya al-Kutub al-Arabiyya.

Shariqi, Tarfa Zakaria. (2020) An Introduction to Tourism and Hospitality. Al-Manara University. Available at https://manara.edu.sy

Al-Shishtawi, Muhammad. (1999) Cairo's Squares in the Mamluk Era (1st ed.) Dar Al-Afaq Al-Arabiya.

Tartour, Shaaban Rabi'. (1987) The Jalayirid State (1st ed.) Dar Al-Hidayah.

Ashour, Saeed Abdel Fattah. (1972) Egypt and the Levant in the Ayyubid and Mamluk Eras, Dar Al-Nahda Al-Arabiya.

Ashour, Saeed Abdel Fattah. (1976) The Mamluk Era in Egypt and the Levant, Dar Al-Nahda Al-Arabiya.

Al-Qalqashandi, Ahmad ibn Ali. (1963) Subh Al-A'sha fi Sina'at Al-Insha' (The Dawn of the Night-Blind in the Art of Composition). The Egyptian General Book Organization.

Maghwari, Rabih. (2000) Ibn Al-Khatib's Methodology in Writing the History of the East, Vol. 1, Mohammed I University, Faculty of Arts and Humanities.

Al-Maqrizi, Taqi Al-Din Ahmad ibn Ali. (1997) Sermons and Lessons from the Mention of Plans and Monuments (Al-Maqrizi's Plans, Vol. 2). Madbouli Library.

Moulay Lakhdar, Abdelrazak, & Bourhali, Khaled. (2016). Requirements for Developing the Algerian Economic Tourism Sector. Algerian Journal of Economic Development, (4), 68.

Egyptian Ministry of Antiquities. (2019). The Mamluk Bahri State. Retrieved from https://web.archive.org/web/20201020081025/https://egymonuments.gov.eg

Egyptian Ministry of Antiquities. (2020). The Circassian (Burji) Mamluk State. Retrieved from https://web.archive.org/web/20201001020601/https://egymonuments.gov.eg

• Holt, P. M. (2008). History of the Mamluks (translated by Muhammad Mustafa Ziyada, p. 76). Family Library.

Al-Maqrizi, Taqi al-Din. (1997) The Behavior to Know the States of Kings, Part 1. Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah.

References

Behrens-Abouseif, D. (2008). *Cairo of the Mamluks: A history of architecture and its culture*. Macmillan.

Bloom, J. M., & Blair, S. (1995). *The art and architecture of Islam 1250–1800*. Yale University Press.

Bloom, J. M., & Blair, S. (2009). *The Grove encyclopedia of Islamic art and architecture* (Vol. 2, p. 152). Oxford University Press.

Chamberlain, M. (1994). *Knowledge and social practice in medieval Damascus, 1190–1350*. Cambridge University Press.

Fabri, F. (n.d.). *Evagatorium in Terrae Sanctae, Arabiae et Egypti peregrinationem*.

Frescobaldi, L., Gucci, G., & Sigoli, S. (1948). *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine, and Syria in 1384* (T. Bellorini & E. Hoade, Trans.). Jerusalem.

Hanna, N. (1998). *Making big money in 1600: The life and times of Isma'il Abu Taqiyya, Egyptian merchant*. Syracuse University Press.

Hunziker, W., & Krapf, K. (1942). *Grundriss der allgemeinen fremdenverkehrslehre*. Polygraphischer Verlag AG.

Labarge, M. W. (n.d.). *La vie d'un pèlerin au Moyen Âge (Life of a Pilgrim in the Middle Ages)*.

Raymond, A. (1993). *Le Caire*. Fayard.

Reisinger, Y., & Mavondo, F. T. (2001, June 10–13). Determinants of youth travel markets' perceptions of tourism destinations. In *Proceedings of the 32nd Annual Travel and Tourism Research Association Conference (TTRA)*, Fort Myers, Florida, USA.